



لقد كان لعلماء الأمة الإسلامية الدور الريادي في توجيهها حملاً لأمانة الوراثة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك كان لهم بالغ الأثر في التوجيه نحو بلوغ مراقي العلم والمعرفة المحققة لنماء الأمة والممهدة لبلوغ رضا المولى وجزائه الأخروي.

وقد تنوعت أساليب العلماء في التوجيه والتربية ومنها رسائلهم لأبنائهم وتلامذتهم<sup>1</sup> التي وإن كان ظاهرها الإرشاد والتوجيه لفلذات أكبادهم إلا أنها قد غدت منهج سلوك ومعلم توجيه لتلامذتهم وأبناء الأمة من بعدهم.

كما أن هذه الرسائل تظهر بلا ريب العمق البيداغوجي الذي تبلور في الفكر الإسلامي وتجسد عبر مسار الإنجازات العلمية المتميزة التي أثلتها الحضارة الإسلامية.

وسنحاول في هذا المقال متابعة سلسلتنا في تقصي آثار أعلام الغرب الإسلامي في التربية، الوقوف عند وصية أبي الوليد الباجي أحد علماء الغرب الإسلامي لولديه نحاول من خلالها تقصي الآراء التربوية لهذا العلم.

<sup>1</sup> - من بين هاته الرسائل: وصية أبي حنيفة لتلميذه، وابن الجوزي لابنه، والحافظ الذهبي لمحمد بن رافع السلمي، ووصية ابن قدامة المقدسي، والفخر الرازي، ووصية موفق الدين البغدادي.

## أولاً: التعريف بالإمام الباجي<sup>2</sup>:

### ✓ ولادته ونشأته:

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعدون بن أيوب بن وارث الباجي، ولد ببطلينوس في ذي القعدة سنة 403 هـ في بيت علم ونباهة وورع، ثم انتقلت أسرته إلى باجة الأندلس قرب إشبيلية ولذلك عرف بالباجي، واستقر أبو الوليد بشرق الأندلس، فأخذ عن جملة من علماء الأندلس.

نشأ الباجي في بيئة فضل وصلاح وعلم، ذلك أن أمه كانت فقيهة قارئة وهي بنت شيخ الأندلس وعالمها الكبير أبي بكر محمد بن موهب القبري (ت 406 هـ)، وأخت أبي شاكر عبد الواحد الفقيه المحدث الأديب الخطيب وأحد شيوخ الباجي.

### ✓ رحلته في طلب العلم:

لم يروِ نَهَمَ الباجي العلمي ما أخذه عن علماء الأندلس، فارتحلت به همته إلى المشرق طلباً للعلم مدة ثلاثة عشر عاماً، لقي فيها كبار العلماء بمختلف مراكز العلم بالمشرق، فأخذ في الحجاز عن أبي بكر بن سحنون وابن صخر وابن أبي محمود الوراق، وبيغداد لقي جملة من الأعلام وتعلم عليهم، منهم أبو الفضل بن عمرو إمام المالكية، وأبو الطيب الطبري، وأبو إسحاق طاهر بن عبد الله الشيرازي الشافعي، وأبو عبد الله الدامغاني والصيمري رئيس الحنفية وغيرهم، ثم رحل إلى الشام ومصر، ودخل الموصل فأقام بها عاماً يدرس على السمناني الأصول، وحاز علماً كثيراً.

لقد كان لهذه الرحلة عظيم الأثر في تكوينه العلمي، فقد اتسعت مداركه، وانفتح على مختلف المذاهب الفقهية وأخذ عن أعلامها، غير أن رحلته لم تكن بالهينة بسبب فقره مما اضطره إلى العمل، ومن ذلك أنه استأجر نفسه مدة

<sup>2</sup> - ترتيب المدارك وتقريب المسالك لأعلام مذهب مالك، للقاضي عياض السبتي، تحقيق مجموعة من العلماء المغاربة، طبعة وزارة الأوقاف المغربية، 18 117 127، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، للقاضي ابن فرحون المالكي، تحقيق: مأمون بن محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: 1996، ص: 197-200.

مقامه ببغداد لحراسة درب، فكان يستعين بإجارته على نفقته، وبضوئه على مطالعته.

#### ✓ قصة الباجي مع ابن حزم:

لما رجع الباجي إلى الأندلس وجد ابن حزم الظاهري قد ذاع صيته وانتشرت بعض آرائه التي أنكرها علماء الأندلس لكنهم عجزوا عن مجادلته فيها لما كان له من قوة في الجدل والمناظرة، فناظره الباجي فغلبه، بل إن ابن حزم بعد تلك المناظرة غادر مدينته ميورقة، وخفت صيته بعد ذلك.

#### ✓ تلامذته:

وقد حاز الباجي رئاسة العلم بالأندلس، وتفقه عليه خلق منهم الإمام أبو بكر الطرطوشي وابنه أبو القاسم، وأبو محمد بن أبي قحافة، وأبو الحسن بن مفوز وغيرهم، والقاضي أبو عبد الله بن شبرين، وغيرهم.

#### ✓ أهم مؤلفاته:

عرف الباجي بحسن تأليفه وإتقانه لمعارف شتى، وقد ظهر أثر ذلك في مصنفاته التي أثرى بها المكتبة الإسلامية، ومنها:

-المنتقى في شرح الموطأ عشرين مجلداً لم يؤلف مثله.

-اختلاف الموطآت، وكتاب التعديل والتجريح لمن خرج عنه البخاري في الصحيح.

-التسديد إلى معرفة طريق التوحيد.

-أحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب الإشارة في الأصول، وكتاب الحدود.

-تفسير المنهاج في ترتيب طرق الحجاج.

-سنن الصالحين وسنن العائدين، وكتاب سبيل المهتدين...

## ✓ وفاته:

وقد توفي بالمرية سنة 474 هـ لسبع عشرة خلت من رجب، وكان جاء إلى المرية سفيراً بين رؤساء الأندلس يؤلفهم على نصرة الإسلام، ويروم جمع كلمتهم مع جنود ملوك المغرب المرابطين على ذلك، فتوفي قبل تمام غرضه رحمه الله.

## ثانياً: التعريف بمنهج الوصية الولدية ومقاصدها

وجه الإمام الباجي لولديه محمد وأبي القاسم وصية<sup>3</sup> جليلة القدر عظيمة النفع، سميت بالوصية الوالدية أحسن فيها وأبدع، تميزت بسهولة العبارة، وتنوع الإشارة، فزواج فيها بين الرحمة والتلطف، وإذكاء روح المنافسة وطلب معالي الأمور. كما جمع في ثناياها بين الإرشاد الإيماني والتوجيه في التعامل مع مختلف مواقف الحياة الاجتماعية والسياسية.

أما غاية الرسالة ومقاصدها فهي أن تبلغ بمن تلقاها مبلغ التجارة الربحية، وأن ينال خير الدنيا والآخرة، وفي ذلك إشارة توجيه القصد إلى طلب مرضاة الله والفوز بالحياة الباقية.

## ثانياً: أهم التوجيهات التربوية الواردة في الوصية الوالدية

## ✓ المسؤولية التربوية التعليمية للوالدين:

تشير مقدمة الرسالة بمفهوم خطابها إلى مسؤولية الوالدين في تنشئة ابنائهم تنشئة سليمة تواكب مختلف مراحلهم العمرية، وتواكب احتياجاتهم في سن المصاحبة بعد بلوغ التكليف، فلما خشي أن تبادره المنية أراد أن يخلف لهما وصية تكون عوضاً عن مباشرة تعليمهما فقال: "لَزِمْنِي أَنْ أَقْدِمَ إِلَيْكُمَا وَصِيَّتِي، وَأُظْهِرَ إِلَيْكُمَا نَصِيحَتِي، مَخَافَةَ أَنْ تَخْتَرِمَنِي مَنِيَّةً وَلَمْ أَبْلُغْ مَبَاشَرَةَ تَعْلِيمِكُمَا وَتَدْرِيكِكُمَا، وَإِرْشَادِكُمَا وَتَفْهِيمِكُمَا". الوصية الوالدية ص: 883.

<sup>3</sup> طبعت الوصية مع كتابه سنن الصالحين وسنن العابدين، تحقيق: إبراهيم باجس عبد المجيد، دار ابن حزم، الطبعة الأولى 2003.

## الرفق بالمتعلم وجعله جوهر الفعل التربوي:

وقع الباجي من خلال مقدمته أن أساس التعليم المتين هو الرفق بالمتعلم والحنو عليه، كما ركز في خطابه على ما يكتنه لابنيه من عظيم المحبة فقال في مقدمة وصيته "يا بني، هداكما الله وأرشدكما ووفقكما وعصمكما، وتفضل عليكما بخير الدنيا والآخرة، ووقاكما محذورهما برحمته... واعلما أن لا أحد أنصح مني لكما، ولا أشفق مني عليكما، وأنه ليس في الأرض من تطيب نفسي أن يفضل علي غيركما، ولا أرفع حالاً في أمر الدين والدنيا سواكما". الوصية الوالدية ص: 883.

وهو بهذا يقرر أن عقد المحبة سابق على عقد التعليم بل هو أساس نجاحه.

## ✓ التوجيه الوجداني العاطفي والإرشاد إلى استقامة السلوك:

دعاهما إلى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤوف الرحيم وحسن اتباعه وسلوك منهجه، ثم محبة صحابته رضوان الله عليهم، والتابعين ومن بعدهم من الأئمة العلماء.

ثم دعاهما إلى تصديق تلك المحبة بالقيام بأركان الإسلام خير قيام خصوصاً الصلاة باعتبارها عمود الدين، ولم يغفل عن الوصية "بالجهاد في سبيل الله إن كانت بكما قدرة عليه، أو عون من يستطيع إن ضعفتما عنه". الوصية الوالدية ص: 888.

كما أو صاهما برفع الأخلاق كالصدق والأمانة وصلة الرحم والعفو والإيثار والوفاء بالعهد وطلب الحلال وحذرهما من وضع الأخلاق والسلوكات فحذرهما من الزنا وتطفيف الكيل وجميع الفواحش.

## ✓ الخطاب العقلي في العقد الديداكتيكي:

لم يقف الباجي عند الخطاب الوجداني لتأسيس عقده التربوي مع ولديه بل أساس لخطاب عقلي حلّ من خلاله منافع اتباعه لما أرشدهما إليه فقال: "وأقل ما يوجب ذلك عليكما أن تُصيخا إلى قولي، وتتعظا بوعظي، وتتفهما إرشادي ونصحي، وتتيقنا أنني لم أنهكما عن خير، ولا أمرتكما بشر، وتسلكا السبيل التي نهجتها، وتتمثلا الحال التي مثلتها". الوصية الوالدية ص: 884.

## ✓ التنوع في أساليب التحفيز:

بين الباجي أن توجيهاته ونصائحه لابنيه إنما قصدهُ فيها تحقيق مصالحهما العاجلة والآجلة، فمن لم يحرك همته عاجل الفوز والنجاح قد يحركها الإنذار بخطر المآل. إن الباجي وكأنه ينبه في ثنايا رسالته عن وجوب تنوع أساليب التحفيز، إذ نجده في موضع آخر يذكر ولديه بشرف نسبتهما، ومسؤوليتهما في أن يكونا خير خلف لخير سلف إذ يقول: " فلم يكن في أعمامكما إلا مشهورٌ بالحج والجهاد والصلاح والعفاف، حتى توفي منهم على ذلك، عفا الله عنا وعنهم...وكانني لاحقٌ بهم وواردٌ عليهم، ويصير الأمر إليكما، فلا تأخذنا غير سبيلهم، ولا ترضيا غير أحوالهم، فإن استطعتما الزيادة، فلا أنفسكما تمهدان، ولها تبيين، وإلا فلا تقصرا عن حالهم". الوصية الوالدية ص: 884-885.

ثم أضاف "واعلما أننا أهل بيت لم يخلُ بفضل الله ما انتهى إلينا منه من صلاح وتدينٍ وعفافٍ وتعاونٍ". الوصية الوالدية ص: 884.

## ✓ مستويات التعليم وتنوع مهاراته:

من محددات جودة التعليم تنوع المهارات التي تستهدفها العملية التعليمية لبلوغ الكفايات المطلوبة، وهذا ما يستدعي وجوب اختلاف مستويات التعليم، وقد كان الإمام الباجي واعيا بهذا المرقى أشد الوعي مدركا أن بلوغ النجابة في العلم لا يتم بالحفظ فقط، بل لا بد من الترقى بالمتعلم ومهاراته حتى تتحق الكفاية ويبلغ المقصود، وإلى هذا أشار في مقدمة وصيته " مخافة أن تخترمني منية ولم أبلغ مباشرة تعليمكما وتدريبكما، وإرشادكما وتفهمكما. فإن أنسا الله تعالى في الأجل، فسيتكرر النصح والتعليم والإرشاد والتفهم، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون، بيده قلوبكما ونواصيكم". الوصية الوالدية ص: 883.

التعليم عند الباجي إذن نصح وإرشاد وتدريب وتفهم، ويتضح هذا الملحظ بشكل بَيِّن في المنهج الذي اقترحه على ولديه لبلوغ درجة العالمية، فبعدما بينَ لهما فضل العلم وكرامة صاحبه إذ " جأه يصحبه حيث سار، ويتقدمه إلى جميع الأفاق والأقطار، ويبقى بعده في سائر الأعصار"، ثم بينَ لهما مراحل تحصيله فمنطلق طالب العالمية أن " يجود قراءة القرآن، ويحفظ حديث النبي

صلى الله عليه وسلم ويعرف صحيحه من سقيمه، ثم يقرأ أصول الفقه، فيتفقه في الكتاب والسنة، ثم يقرأ كلام الفقهاء، وما نُقِلَ من المسائل عن العلماء، ويدرب في طرق النظر وتصحيح الأدلة والحجج، فهذه الغاية القصوى، والدرجة العليا". الوصية الوالدية ، ص: 890.

فانظر كيف دعا إلى الارتقاء في التعلم بدءا بحفظ أصول العلم ومنبع التزكية القرآن والسنة، إلى تحصيل درجة التحقيق في العلوم، والإسهام فيها نظرا وتصحيحا واستدلالا. كما أشار إلى أن بلوغ هذا المقصد دونهُ الكد والاجتهاد فقال: " فاجتهدا في طلبه، واستعذبا التعب في حفظه، والسهر في درسه، والنصب الطويل في جمعه". الوصية الوالدية ، ص: 889.

#### ✓ وجوب تمثيل مقتضى العلم والتوكل على الله:

لم يفت الباجي في وصيته الجامعة المانعة أن يُعَلِّمَ ولديه أن زينة العلم العمل به، وإكليله العزة بالله والتوكل عليه لا التزلف به بين يدي السلاطين وذوي الجاه، فينبغي لصاحب العلم أن يزهد فيما عند الناس صيانة لنفسه وحفظ علمه، فإنه إذا علم بالله عز وجل علم أن الخير بين يديه فلم يرق وجهه لأحد ولم يطرُق باب أحد، بل اعتمد على ربه في جلب كل خير وفي دفع كل ضر.

#### ✓ التحصين الفكري قبل الانفتاح:

عرفت الساحة العلمية في الأندلس زمن الباجي ظهور مؤلفات علم المنطق والفلسفة التي تمت ترجمتها، ونظرا لاحتوائها على ما قد يشوش على عقيدتهما وقيمهما حذرهما من قراءتها إلى حد بلوغهما مستوى النضج الفكري والحصانة العلمية التي يميزان بها بين الحق والباطل، والصحيح والفساد فقال: "وأحذرُكما من قراءتهما ما لم تقرأ من كلام العلماء ما تقويان به على فهم فسادِه وضعفِ شُبُهه، وقلةِ تحقيقه؛ مخافة أن يسبقَ إلى قلبِ أحدكما ما لا يكون عنده من العلم ما يقوى به على رده. ولو كنت أعلم أنكما تبلغان منزلة المميز والمعرفة، والقوة على النظر والمقدرة، لحضضتُكما على قراءته، وأمرتُكما بمطالعتِه، لتُحَقِّقا ضعفه وضعفَ المعتقدِ له". الوصية الوالدية ، ص: 891.

لذلك نجد في زمننا من الأمم التي يحترم أصحاب القرار فيها مقوماتهم الحضارية يُجرِّمون النطق بغير اللغة الرسمية في محافلهم، ويمنعون تعلم اللغات الأجنبية في المرحلة الأساسية من التعليم بغية تحقيق الحصانة اللغوية والفكرية للمتعلم.

#### ✓ التربية على تحمل المسؤولية:

دعا الباجي ولديه إلى الفاعلية في المجتمع من خلال بذل النصح واعتزال الظلم وأهله، والإحسان فيما يوكل إليهما من وظائف في خدمة الأمة فقال: "وعليكما بالأمر بالمعروف وكونا من أهله، وانها عن المنكر واجتنباً فعله...فإن بلغ أحدكما أن يسترعيه الله أمة بحكم أو فتوى، فليتمثل العدل جهده، ويجتنب الجور وغدره؛ فإن الجائر مُضادٌ لله في حكمه، كاذبٌ عليه في خبره، مغيرٌ بشريعته، مخالفٌ له في خليقته". الوصية الوالدية، ص: 892-895.

كما أرشدهما إلى عدم طاعة ولي الأمر في معصية وحذرهما أن ينحرف أحدهما عن الحق حفاظاً على منصب وخوفاً من العزل منه فقال: "وإن استوت عنده ولايته وعزله، كان جديراً أن يستديم العمل فيبلغ الأمل، أو يعزل لإحسانه، فلا يحط ذلك من مكانه". الوصية الوالدية، ص: 905-906.

#### ✓ حكمة البدء والختام:

إن الباجي رغم ما بذله من خالص نصح لولديه علم أن الله هو المسدّد للخير وإليه ينبغي أن يتوجه كلُّ مرَبٍّ ليبارك الله جهده ويضاعف له النتائج فقال في ختام وصيته: "وإني لأوصيكم، وأعلمُ أني لن أغني عنكما من الله شيئاً. إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتكمل المتوكلون، وهو حسبنا ونعم الوكيل". الوصية الوالدية، ص: 906.

#### خاتمة:

إن القارئ المتأمل للرسالة الوالدية للباجي ليجد نفسه أمام تحفة أدبية ودرة في علم التربية تبين كيف أبدع أسلافنا بالنهوض بأبنائهم وأجيالهم، وتضع أمامنا مسؤولية الإجابة عن إشكالاتنا التربوية الآنية سعياً للنهوض بأممتنا لتتبوأ مكانتها التي أرادها الله لها وهي الشهادة بالقسط على العالمين.